



الثقافة كتربية وصناعة للتحضر في فكر مالك بن نبي

Culture as an education for civilization

in Malik bin Nabi's thought

لامية علاق (1)

جامعة باتنة 1 الحاج لخضر

lamiaaallag@univ-batna.dz

تاريخ القبول: 20/06/01

تاريخ الارسال 20/05/01

الملخص

بالمقاربات النظرية المتداولة بين المختصين في الأوساط الأكاديمية، فإنّ مجمل إنتاجه الفكريّ يعتبر مع ذلك وثيق الصلة بمشكلة التربيّة من حيث أسسها وأبعادها الاجتماعية ودورها في تحقيق التغيير الثقافي والحضاري. وهو ما خلصت إليه العديد من الدراسات والبحوث التي تناولت هذا الجانب من فكر مالك بن نبي

نحاول في هذه الورقة البحثية أن نبين كيف عالج مالك بن نبي المسألة التربوية ضمن نطاق أوسع وأفق أشمل حيث تندرج مجمل أعماله ونتاجه الفكري ضمن فلسفته في التاريخ والاجتماع ونظريته في الثقافة والحضارة.

شكلت العلاقة بين التربية والثقافة والحضارة موضوع اشتغال عدد من المفكرين قديما وحديثا، وعدد من المقاربات المعاصرة، كما نلاحظ ذلك عند الفيلسوف الاجتماعي المعاصر ادغار موران. غير أنه يبقى الفيلسوف والمفكر الاجتماعي مالك بن نبي أحد أهم الذين انخرطوا بقوة من خلال مشروعه الفكري المتميز في تناول هذه العلاقة بحيث يعد أهم المنظرين المعاصرين لسوسيولوجيا الحضارة.

على الرغم من أنّ مالك بن نبي لم يخصّص كتابا معيناً ضمن مؤلفاته لتناول مشكلات التربيّة

كلمات مفتاحية:

الثقافة؛ التربية؛ الحضارة؛ الفكر؛ مالك بن نبي

Abstract

The relationship between education, culture and civilization has been the subject of the work of a number of thinkers, ancient and modern, and a number of contemporary approaches, as we note in the contemporary social philosopher Edgar Moran. However, the philosopher and social thinker Malek Bennabi remains one of the most important people who have been deeply involved through his distinguished intellectual project in dealing with this relationship so that he is considered the most important contemporary theorists of the sociology of civilization.

Although Malik Bennabi did not dedicate a specific book from his writings to deal with the problems of education using the theoretical approaches circulating among specialists in academic circles,

his entire intellectual production is nonetheless closely related to the problem of education, in terms of its foundations, social dimensions, and its role in achieving cultural and civilizational change.

In this research paper, we try to show how Malik Nabi dealt with the educational issue within a broader and more comprehensive scope, as all of his works and intellectual output fall within his philosophy of history and his theory of civilization.

Keywords:

The Culture; Education; Civilization; Thought; Malik bin Nabi.

توطئة

شكلت العلاقة بين التربية والثقافة والحضارة موضوع اشتغال عدد من المفكرين قديما وحديثا، وعدد من المقاربات المعاصرة، كما نلاحظ ذلك عند الفيلسوف الاجتماعي المعاصر ادغار موران. غير أنه يبقى الفيلسوف والمفكر الاجتماعي مالك بن نبي أحد أهم الذين انخرطوا بقوة من خلال مشروعه الفكري المتميز في تناول هذه العلاقة بحيث يعد أهم المنظرين المعاصرين لسوسيولوجيا الحضارة.

من المؤكد أن مالك بن نبي عالٍج المسألة التربوية ضمن نطاق أوسع و أفق أشمل حيث تندرج مجمل أعماله ونتاجه الفكري ضمن فلسفته في الحضارة ونظريته في الحضارة ، حيث نشر أعماله كلها في حياته وبعد مماته تحت عنوان دال ومعبر وهو مشكلات الحضارة، فلم يكن رحمه الله مجرد فيلسوف استبدت به مشكلات الفكر أو مجرد باحث استولى عليه الشغف المعرفي، لقد كان رجلا يعيش مشكلات مجتمعه ويتفاعل معها ويبحث لها عن الحلول، وقد كانت هذه المشكلات تبدو لغيره متعددة ومشتتة ولكنها بدت له أنها جميعا ليست إلا أعراض لمشكلة واحدة وهي مشكلة الحضارة، ومن ثم فالرجل لم يكن مشغولا في المقام الأول بوضع نظرية في الحضارة تضارع النظريات التي كانت قد أخذت طريقها إلى ساحة الفكر الأوروبي في النصف الأول من القرن العشرين كنظرية اشبنجلر ونظرية اشفيتزر ثم نظرية توينبي بقدر ما كان مشغولا بالبحث عن الشروط السوسيولوجية للتحضر لمجتمعه.

وعلى الرغم من أن مالك بن نبي لم يخصّ كتابا معيناً ضمن مؤلفاته لتناول مشكلات التربية بالمقاربات النظرية المتداولة بين المختصين في الأوساط الأكاديمية، فإنه مع ذلك يعد مجمل إنتاجه الفكري وثيق الصلة بمشكلة التربية من حيث أسسها وأبعادها الاجتماعية ودورها في تحقيق التغيير الثقافي والحضاري. وتطرح هذه الورقة البحثية علاقة الثقافة والحضارة بالتربية وكيف فكر مالك بن نبي في جعل الثقافة برنامجا تربويا للتحضر،

ولتلافي كل لبس تنبغي الإشارة إلى أن مصطلح الحضارة يطرح اليوم في سياقات متعددة وبدلالات مختلفة فقد يعني "كل الإنجاز المادي والرمزي الذي حققته البشرية عبر تاريخها والذي ساهمت فيه مجتمعات مختلفة" وهو المعنى المفهوم من مصطلح الحضارة الإنسانية. ومن جهة ثانية قد يعني "مجل التراث الذي خلفته أمة من الأمم والذي يعبر عن رؤيتها للعالم ولو كانت هذه

الأمة بدائية"، وهو المعنى المفهوم من مصطلح الحضارة البدائية والثقافة البدائية عند شتراوس ورالف لنتون، ومن جهة ثالثة يستخدم مصطلح الحضارة للدلالة على مستوى معين من الرقي المادي والمعنوي الذي بلغه مجتمع معين وهي بذلك تعني "الشروط التي تسمح للمجتمع بتوفير جميع الضمانات الضرورية لأفراده" وهو المعنى الذي يقصده مالك بن نبي في مجمل أعماله.

إن الإشكالية الرئيسية التي تتناولها هذه الورقة هي: كيف يمكن أن تكون التربية مدخلا للتغيير الثقافي والحضاري وليست مجرد أداة تعيد انتاج النموذج الاجتماعي والحضاري والثقافي السائد في المجتمع؟ سواء على مستوى السلوك الفردي أو الجماعي أو المؤسسي؟ ماهي الشروط السوسيولوجية التي تجعل التربية مدخلا أساسيا للتغيير الثقافي والحضاري من منظور مالك بن نبي؟ أعني الشروط التي تجعل التربية تنخرط بقوة ليس فقط في تحقيق الاستقرار والتماسك الاجتماعي وإنما أيضا في تحقيق التغيير الاجتماعي؛ بعبارة أخرى الشروط التي تجعل التربية تتجاوز تحقيق الشرط الإنساني إلى تحقيق شروط المدنية والحضارة

ويتفرع بطبيعة الحال عن هذا السؤال الرئيس أسئلة فرعية كثيرة منها:

- ما موقع المسألة التربوية من المسألة الحضارية في فكر مالك بن نبي؟
- أي علاقة بين التربية والثقافة والحضارة في فكره؟
- كيف يمكن للثقافة أن تكون برنامجا تربويا مُحضراً؟

ما مدى قدرة التربية والمؤسسات التربوية الحالية على التأثير في البنيات الاجتماعية وتحقيق التغيير الاجتماعي الحضاري؟ وأين مكنم القصور فيها؟ هل الإخفاق الذي عرفته المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة في تحقيق النهضة الحضارية هو بالأساس اخفاق تربوي أم أنه يفسر بغير ذلك؟

ثم ما مدى استفادة الفكر النهضوي من فكر مالك بن نبي فيما يتعلق بالعلاقة بين التربية والثقافة والحضارة؟ بطبيعة الحال فإن الحيز الزماني والمكاني لهذه الورقة البحثية لن يسمح لنا بتقديم إجابات وافية عن جميع هذه الأسئلة والإشكالات. ولذلك سنركز على الأبعاد المحورية في المسألة التربوية عند مالك بن نبي خاصة في علاقتها بالمسألة الثقافية. وذلك من خلال العناصر التالية:

- أولا- مقدمة
- ثانيا- مفاهيم مفتاحية.
- ثالثا- مفهوم التربية وشروطه السوسيولوجية.
- رابعا- علاقة التربية بالثقافة من منظور مالك بن نبي.
- خامسا- الثقافة كبرنامج تربوي.
- سادسا- خاتمة.

1. مقدمة

يعد مالك بن نبي من أهم المفكرين الذين أثروا بفكرهم بجيل كامل على امتداد العالم الإسلامي بسبب طريقته و منهجيته الفريدة في تناول وتحليل القضايا عموما وتناول قضايا ومشكلات العالم الإسلامي على وجه الخصوص؛ فمالك بن نبي كما هو معلوم يرد جميع هذه المشكلات إلى مشكلة واحدة هي مشكلة الحضارة والتي تمثل واسطة العقد في مجمل كتبه، حتى أنه أعاد نشرها في حياته وبعد مماته تحت عنوان دال ومعبر وهو مشكلات الحضارة، فضلا عن أن تناوله لمشكلات الحضارة بصفة شاملة قد عبر عنه في أول كتبه في شروط النهضة، الصادر في طبعته الأولى سنة 1947، ولما كنا سنعرض تاليا للمسألة الحضارية من زاوية ثقافية وتربوية في فكر مالك بن نبي فإنني سأكتفي هنا بالتأكيد على اندراج مجمل أعماله ونتاجه الفكري ضمن هذه الرؤية الحضارية، فلم يكن مالك بن نبي مجرد فيلسوف استبدت به مشكلات الفكر أو مجرد باحث استولى عليه الشغف المعرفي، لقد كان رجلا يعيش قضايا ومشكلات أمته ويتفاعل معها ويبحث لها عن الحلول الفكرية والعملية وقد كانت هذه القضايا والمشكلات تبدو لغيره متعددة ومشتتة ولكنها بدت له أنها جميعا ليست إلا مظاهر وأعراض لقضية ومشكلة واحدة وهي مشكلة الحضارة،

وفي هذا السياق تحب الإشارة أن اهتمام بن نبي بموضوع الحضارة يختلف جذريا من حيث الدوافع والغايات عن اهتمام سائر المفكرين؛ فهو لم يكن مشغولا في المقام الأول بوضع نظرية في فلسفة الحضارة تضارع النظريات التي كانت قد أخذت طريقها إلى ساحة الفكر الأوربي في النصف الأول من القرن العشرين كنظرية أسوالد شبنجلر، ونظرية البرت شفيتزر، ثم نظرية ارنولد توينبي،

بقدر ما كان مشغولاً بالبحث عن شروط الإقلاع الحضاري لأمته ومجتمعه وهو ما عبر عنه هو ذاته بقوله "إن نظرة واحدة إلى نهضتنا البعيدة، حينما نهضنا على صوت زعمائنا الأقدمين كجمال الدين ومحمد عبده والشيخ رشيد رضا، حينما سمعنا هذه الأصوات الجليلة وأيقظتنا من سباتنا فأين توجهنا؟ إننا توجهنا بالطبع في طريق الحضارة. ولكننا بكل أسف من غير أن نحدد الهدف ونوضح معالم الطريق"(1).

2. مفاهيم مفتاحية

2.1. الحضارة والأزمة الحضارية

ليس خافياً أن مالك بن نبي يعتبر " أن كل تفكير في مشكلة الإنسان بالنسبة إلى حظه في الحياة، هو في أساسه تفكير في مشكلة الحضارة، والمشكلة القائمة من طنجة إلى جاكارتا، وهي في جوهرها مشكلة حضارة(2). وأن حل مشكلة الحضارة يجب أن يتم وفق منطق التاريخ وسنته ومن ثم "فإنه لتفكير سديد؛ ذلك التفكير الذي يرى أن تكوين الحضارة كظاهرة اجتماعية، إنما يكون في نفس الظروف والشروط التي ولدت فيها الحضارة الأولى"(3). يعرف مالك بن نبي الحضارة بأنها " جملة الشروط المادية والمعنوية التي تسمح لمجتمع ما أن يقدم لأفراده جميع الضمانات اللازمة لأداء دورهم ورسالتهم في الحياة"(4)، وإن بناء الحضارة ينهض على عاملين أساسيين وهما: الإرادة الحضارية من جهة والإمكان الحضاري من جهة أخرى، وكلا الجانبين وثيقي الصلة بالمشكلة التربوية والثقافية كما سنرى.

إن الإرادة الحضارية هي بنت الروح فالروح هي التي تدفع شعب ما لتحمل كل الصعاب والمحن ومواجهة مختلف التحديات التاريخية، وهذه الروح تستمد فعاليتها ودافعيتها من المسوغات التي تشرط حركته التاريخية. و "إن أسى المسوغات هي تلك التي تهبط من السماء في قوله عز وجل {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 51/56] شريطة أن نفهم هذا المسوغ السامي السماوي بمعناه التاريخي، الذي أنار آفاق الإنسانية بنور الحضارة الإسلامية، لأن الإسلام أتى بالمسوغات الكفيلة بتحقيق أقصى ما يمكن من التوتر في الطاقات الاجتماعية، وأسعى ما يمكن من المصلحة التي تخدمها تلك الطاقات"(5).

من هذه الناحية يعتقد مالك بن نبي أنه لكي ندرس ظاهرة الحضارة ونفهم كيفية ظهورها وميلادها وتآلقها، وجب علينا ربطها بظاهرة الانحطاط والأفول والانهيار، والعكس صحيح، ولهذا فالأمة في أمس الحاجة إلى أن تتأمل الأسباب البعيدة التي حتمت تقهرها وانحطاطها في التاريخ.

ومن ثم مالك بن نبي يؤكد أن أزمنا الحضارية الراهنة إنما تعود لخفوت الروح وضعف الإرادة الحضارية وتراجع مساحة القيم لدى الفرد والمجتمع على السواء، وهو معطى لم يحصل دفعة واحدة وإنما تعود جذوره إلى فترة مبكرة جداً، فترة الجيل الذي منحه القرآن الدفعة الإيمانية الأولى لتمثل القيم الحضارية الكبرى التي جاء بها الوحي الأعلى، لكن هذه الدفعة ما لبثت أن بدأ نورها يخفت، وروحها تصاب بالتحجر، ويؤرخ مالك بن نبي "لذلك بالدوافع السلبية التي خلفتها الصراعات الأولى في المجتمع الإسلامي، والتي ظلت تنمو فيه يوماً فيوماً" (6). إلى أن ظهرت في المجتمع الإسلامي في أشكال التعارض الداخلية التي بلغت قمته في (صقن)، وبدأت أعراضها ومضاعفاتها تطفوا على السطح، "حتى إذا جاء القرن الثامن الهجري، أخذت الحضارة الإسلامية في الأفول وبدأت الظلمات تغمرها في الأندلس، لأنها فقدت مسوغاتها فلم تستطع أن تدفع من جديد طاقاتها الاجتماعية، وانطفأت تدريجياً جذوتها الدافعة للضمير واليد والعقل" (7). و "لقد بلغت عوامل التعارض الداخلية قمته، وانتهت إلى وعدها المحتوم وهو تمزق عالم واهن، وظهور مجتمع جديد ذي معالم وخصائص واتجاهات جديدة، فكانت تلك مرحلة الانحطاط، إذ لم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارية، بل أضحت عناصرها خامدة ليس لها فيما بينها صلة مبدعة" (8).

ففي اعتقاد مالك بن نبي أن المجتمع يبلغ هذه المرحلة عندما تكف الرياح التي منحتة الدفعة الأولى عن تحريكه، فتكون بذلك نهاية دورة حضارية، وهجرة حضارة إلى بقعة أخرى. وفي البقعة المهجورة يفقد العلم معناه كله، فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، إذ يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان (9). فإشعاع الروح أنما يعود لعمل النبي صلى الله عليه وسلم، الذي أدرك سر قيمة الفضائل الخلقية، باعتبارها قوة جوهرية في نشوء وتكوين الحضارات، لكن أوضاع القيم كما يرى علماء الاجتماع قد تنقلب من عصر إلى عصر، وتنقل المجتمع من حالة إلى حالة، فأوضاع القيم تنقلب في عصور الانحطاط لتبدوا الأمور ذات خطر كبير، فإذا ما حدث هذا الانقلاب انهار البناء الاجتماعي، إذ هو لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، ولأن الروح والروح وحده هو الذي يتيح

للإنسانية أن تنهض وتتقدم ، فحيثما فقد الروح سقطت الحضارة ، انحطت ، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثيرها جاذبية الأرض"(10)

وكان من نتائج انطفاء أو خفوت شعلة الروح، أن عرف العالم الإسلامي أول انفصال في تاريخه، وكان هذا في معركة صفين عام 38هـ إذ كان يحمل بين جنبيه بعد قليل من سنوات ميلاده تعارضا داخليا، كانت حمية الجاهلية، تصطرع مع الروح القرآنية. "ومنذ ذلك الانفصال الأول فقد العالم الإسلامي توازنه الأول ، على الرغم من بقاء الفرد المسلم متمسكا في قرارة نفسه بعقيدته التي نبض بها قلبه المؤمن(11) .

وهنا يؤكد مالك بن نبي أن الإرادة الحضارية هي في نهاية المطاف والتحليل إرادة جماعية، فالطاقة الفردية غير مجدية ، إذا لم تكن خاضعة لنظام تربوي معين يعيد تنظيمها وتوجيهها ضمن الغايات والمسوغات الكبرى التي تشرط إرادته الحضارية، وهي لا تحمل أية قيمة، إذا لم تتم في إطار جماعي منظم، تتضافر فيه جهود أفراد المجتمع حتى يتسنى لهم أداء دورهم وحمل أمانتهم ومواجهة التحديات والابتلاءات التاريخية التي تعترض طريقهم الى الحضارة، "فطاقة الفرد الحيوية قد تهدم المجتمع ما لم يسبق تكييفها، أعني ما لم تكن خاضعة لنظام دقيق تمليه فكرة عليا، تعيد تنظيم هذه الطاقة ،وتعيد توجيهها فتحولها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة، إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان"(12).

ويخلص مالك بن نبي في تحليله لمراحل خفوت الروح وتحلل الغرائز وتراجع الإرادة الحضارية ضمن الرؤية النفسية الزمنية التي سلكها في تشخيص وعرض الجذور التاريخية لأزمة العالم الإسلامي، إلى أن فقدان المسوغات وتراجع القيم والاستهتار بالفضائل والاكتفاء بالوظائف البيولوجية والارتكان للحاجات الغريزية هو في الأخير الذي آليه وعله تحلل كل جسم وبالتالي تحلل المجتمع ، حيث ينبه إلى أن "... التعارض الداخلي بين أسباب الحياة والموت في أية عملية حيوية (بيولوجية) هو الذي يؤدي بالكائن إلى قمة نموه ثم إلى نهاية تحلله ، أما في المجال الاجتماعي ، فإن هذه الحتمية محدودة بل مشروطة ،لأن اتجاه التطور وأجله يخضعان لعوامل نفسية زمنية يمكن للمجتمع المنظم أن يعمل في نطاقها حين يعدل حياته ويسعى نحو غاياته" ... (13)،

إن هذا التحليل لجذور الأزمة والذي كرره مالك بن نبي في مجمل انتاجه الفكري انما يمثل الخلفية التاريخية لمختلف آرائه في علاج مشكلات الحضارة بالنسبة للعالم الإسلامي، وهو تحليل

ينسجم ويتسق مع مختلف الآراء المتعلقة بتحليل مشكلة الأفكار أو مشكلة الثقافة أو مشكلة التربية أو غيرها من المشكلات، وهي مشكلات ينتظمها خيط واحد كما سترى وهو الفشل في بناء الإنسان، وابعاده عن الشروط التي صنعت إرادته الحضارية أول مرة، بحيث لم يعد لها من أثر في تحريك التاريخ، ودفع عجلته إلى الأمام ليتناغم الإنسان مع فكرته ومبدئه ومثله الأعلى الذي ينطلق منه، ويسعى إلى تجسيده في أرض الواقع. ونعني بذلك الإيمان، هذا الإيمان في حقيقة الأمر يقع بين حدين: حد الإشعاع؛ فيكون بذلك عاملا مساعدا على التحضر، وحد الجذب، فيكون مثبطا ومساهما في عملية التقهقر" فالدين هو (مركب) القيم الاجتماعية، وهو يقوم بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره وحركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية. أما حين يصبح الإيمان إيمانا جذيبا دون إشعاع؛ أعني نزعة فردية، فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها، إذ يصبح الإيمان رهبان، يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم ومسؤولياتهم (14). ومن ثم فإن التغيير الذي طرأ على المجتمع في التاريخ، إنما هو تغيير طرأ على الإنسان ذاته، الإنسان المتحضر الذي فقد همته المتحضرة، فأعجزه فقدها عن التمثل والإبداع والاستمرارية وهو ما يضعنا وجها لوجه أمام المشكلة التربوية.

2.2. الثقافة كمفهوم وكصناعة

أولى مالك بن نبي عناية خاصة لمشكلة الثقافة حتى أنها تشكل نظرية قائمة بذاتها وقد ساهم مالك بن نبي رحمه الله في الموضوع عندما كان لا يزال بكرة لافي العالم الإسلامي فحسب بل في العالم الغربي نفسه، وقد ترك في ذلك طروحات ورؤى متميزة ضارح بها وحاو بها فلاسفة الثقافة في الغرب في تلك الفترة كعالم الانتروبوجيا رالف لنتون صاحب كتاب شجرة الحضارة، ومالينوفسكي و على الرغم من أن مالك بن نبي قد شرح جزئيا نظريته في الثقافة في كتاب شروط النهضة فقد عاد في سنة فخصص لها وهو في القاهرة كتابه المتفرد مشكلة الثقافة كما نجد لنظرية الثقافة امتدادا في سائر فصول كتبه كمشكلة الأفكار وميلاد مجتمع و تأملات وآفاق جزائرية الذي صدر في بعض طبعاته بعنون القضايا الكبرى.

2.2.1. مفهوم الثقافة

تمثل الثقافة في فكر مالك بن نبي أحد المداخل الأساسية من مداخل التغيير الاجتماعي وأكثرها عمقا، ذلك أنه كما يقول الأستاذ مالك بن نبي: "أن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو أساسا

تفكير في مشكلة الثقافة⁽¹⁵⁾. وإن: "أي إخفاق يسجله المجتمع في إحدى محاولاته، إنما هو التعبير الصادق على درجة أزمته الثقافية..."⁽¹⁶⁾، فما هي الثقافة؟ وما هي عناصرها ومكوناتها؟ ولماذا تختلف الثقافات؟

من الأمانة أن نقول أنه لا يوجد ولا نملك لحد الآن تعريفاً موحداً للثقافة، فقد يجنح البعض في الكشف عن مفهوم الثقافة بالوقوف على ما تعطيه المعاجم اللغوية، وتتبع الدلالات اللغوية للفظ بحسب ما ورد في لسان العرب، ونحن نحسب أن فهم ظاهرة اجتماعية مركبة كالثقافة، لا يفيد فيه عصر الألفاظ، وأقصى ما يفيد هو تلمس وجه العلاقة بين دلالة اللفظ لغة ودلالته كمفهوم اجتماعي، وعليه إذا عدنا إلى معاجم اللغة الأصلية، نجد أن مادة هذا المفهوم "ثقف"، تدور على المعاني التالية⁽¹⁷⁾: الحذق، والفهم، وضبط ما يحويه، والظفر بالشيء، وكذلك تعني: فَطِنَ ذِكْرُ ثَابِتُ المعرفة بما يحتاج إليه، وتعني: تهذيب وتقويم، وتسوية من بعد اعوجاج.

أما الثقافة كمفهوم اجتماعي فيحتاج سبر معناها إلى القيام بتحليل للفعل الاجتماعي، فمن المعلوم أن الإنسان اجتماعي بطبعه، أي أنه لا يمكن أن ينمو نمواً سليماً إلا في وسط اجتماعي، حيث بينت الدراسات الاجتماعية أن الإنسان لا ينشأ إنساناً سوياً إلا في وسط اجتماعي، فالوسط الاجتماعي ضرورة لتلبية الحاجات المادية الكثيرة والمتعددة والمتجددة التي يستحيل على الفرد بمفرده تلبيتها. وهو ضرورة كذلك لإشباع الحاجات النفسية، فمعظم هذه الحاجات لا يمكن للفرد إشباعها إلا وسط جماعة، كالحاجة إلى الأُنس، الأمن، والاهتمام والتقدير، والاعتراف بالذات. وفضلاً عن ذلك فإن اكتساب القدرة على التواصل الاجتماعي من لغة وفكر ومنطق ومعرفة وخبرة لا يتأتى للفرد إلا في وسط اجتماعي.

وهكذا فإن الفرد يولد ثم ينمو، ويتفجر فيه الوعي فيجد نفسه ينتهي إلى مجتمع معين و حضارة معينة، يحمل قيم ذلك المجتمع الذي ولد ونشأ فيه ويدين بعقيدته، ويتكلم لغته، ويتبنى عاداته وتقاليده، بمعنى آخر يولد فيجد نفسه يحمل هوية حضارية محددة، ولو نشأ نفس هذا الفرد في مجتمع آخر لكانت له هوية حضارية مختلفة ولنشأ متشعباً بقيم وعقيدة وعادات ذلك المجتمع الآخر، وفي الحديث "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"، فالفرد خلال مراحل نموه الأولى يكتسب من المجتمع الذي يعيش فيه هويته و الإطار العام لشخصيته الاجتماعية، وكما يقول مالك بن نبي فالطبيعة توجد النوع والتاريخ يصنع المجتمع⁽¹⁸⁾. وفي العادة فإن ذلك يتم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها الأسرة في مرحلة أولى،

والمنظومة التربوية في مرحلة ثانية، حيث يستبطن الفرد خلال طفولته جميع العناصر الضرورية التي تشكل هويته ليكون عضوا في ذلك المجتمع. يشعر بالانتماء والولاء إليه.

ولعل السؤال المتبادر الآن هو ما هي هذه العناصر التي على أساسها نحكم بانتماء شخص ما إلى مجتمع ما؟ لو حاولنا أن نقف على هذه العناصر التي تثبت انتماء فرد ما إلى مجتمع معين وتشكل هويته الحضارية، لوجدنا عناصر كثيرة، تختلف من مجتمع إلى آخر، وتختلف حتى بالنسبة للمجتمع الواحد من عصر إلى آخر.

قد يتم الالتفات أول الأمر إلى الاسم، فالاسم ظاهرة اجتماعية وهو مشترك لكل بني البشر، فكل فرد له بالضرورة اسم أو يجب أن يكون له اسم هو العنوان الأول لهويته الشخصية، لكن الاسم ليس مجرد عنوان للهوية الشخصية فهو أكثر من ذلك عنصر من عناصر هويته الحضارية والمجتمعية، ذلك أن لكل مجتمع قاموس محدد من الأسماء، تميز أفراد ذلك المجتمع عن أفراد سائر المجتمعات، فأسماء مثل pierre , Daniel, Jacque تخص مجتمعا معينا، وأسماء مثل كاظم وجواد و موسوي تخص مجتمع آخر، وأسماء مثل محند وفاطنة، وعيشة، تخص مجتمع ثالث، وهكذا نجد أن الاسم يمثل عنصر من عناصر الهوية الأولى، التي تحدد انتماء فرد إلى حضارة أو مجتمع ما، ومع ذلك فإنه اليوم وبأثر من العولمة الثقافية نجد البعض يتخلى عن أسماء حضارته ويقتبس أسماء حضارة أخرى، كما نجد من يتخلى عن أسماء مجتمعه ويقتبس لأولاده أسماء مجتمعات أخرى.

قد يتم الالتفات ثانيا إلى سمتة وزيه ومظهره الخارجي وذوقه في اللباس، فالأزياء أيضا ظاهرة اجتماعية ومع ذلك فلكل مجتمع نمط محدد من اللباس، ونحن نكتسب ذوقنا في اللباس من المجتمع الذي نعيش فيه، من الثقافة التي تشكل سمتنا.

ربما نلتفت إلى سلوكه الذي يعطينا عنه انطبعا أوليا، فمثلا إذا أردنا أن ندخل في علاقة اجتماعية مع شخص ما، فإن أول فعل اجتماعي بالطبع هو إلقاء التحية، وإلقاء التحية كذلك مشترك إنساني، غير أن لكل أمة تحيتها الخاصة بها، ولكل مجتمع طريقته وتقاليده في إلقاء التحية. فإذا رأينا شخصين يتبادلان التحية سلاما، غلب علينا انطبعا بأنهما ينتميان لأحد المجتمعات الإسلامية، أو إذا رأيناهما كل منهما يجمع يديه إلى صدره ويحني رأسه انحناء خفيفة، تشكل لدينا انطبعا قوي أنهما ينتميان لمجتمعات شرق آسيا وهكذا فالتحية كفعل اجتماعي أولي هي أيضا عنصر من العناصر التي تحدد انتماء الشخص الثقافي.

ربما أيضا نلتفت إلى أخلاقه والقيم التي تحكم سلوكه الاجتماعي فنحن عادة إذا دخلنا في تبادل وتعامل مع شخص ما، نتوقع أن تكون استجابته وسلوكه معنا موافق لما نشأنا عليه، ولما هو متعارف عليه بيننا، ولما هو سائد في مجتمعنا من أخلاق وقيم ومثل، فإذا صدمنا بأن كان سلوكه مخالف تماما لما كنا نتوقعه، ولما نستبطنه من قيم ومن طرق ونماذج السلوك، ربما خمننا أنه لا ينتمي إلى مجتمعنا، فلو مثلا ...

طبعاً ليست هذه العناصر هي كل العناصر التي تحدد انتماء فرد معين إلى مجتمع معين، وتحوله من مجرد فرد إلى شخص اجتماعي، وتكسبه شخصيته الاجتماعية، فثمة عناصر أخرى كثيرة غير أن هذا التحليل يسمح لنا حتى الآن بتسجيل ملاحظتين أوليتين:

الملاحظة الأولى: وهي أن هذه العناصر التي تحدد انتماء الفرد إلى مجتمع معين في عصر معين وتساهم في تشكل هويته بكل أبعادها، لا تولد مع الفرد بل هي سابقة على وجود الفرد، سبق وجود المجتمع نفسه على وجود الفرد، والفرد يكتسب هذه العناصر ويستبطنها عبر عملية وسيورة طويلة نطلق عليها التربية والتنشئة الاجتماعية.

والملاحظة الثانية: وهي أن هذه العناصر ترتبط بنمط وأسلوب الحياة ونماذج السلوك السائد في ذلك المجتمع، وهي عناصر تختلف من مجتمع إلى آخر، فكل مجتمع انتقى عبر تجربته وسيورته التاريخية ومن خلال التحديات المختلفة التي واجهها، العناصر التي تعبر عن هويته وتضمن استمراره وتحفظ شخصيته ودوره عبر التاريخ.

لقد اصطلح علماء الاجتماع على هذه العناصر مصطلح بالثقافة. فالثقافة ظاهرة اجتماعية مركبة تتضمن عناصر كثيرة تند عن الحصر والتعداد تعمل على تشكيل شخصية الفرد بوصفه عضواً في ذلك المجتمع ولذا فقد عرفها إدوارد تايلور الذي نشر عام 1871 أهم كتاب في الموضوع في وقته وأصبح فيما بعد المرجع الأساسي للأعمال التالية وهو "الثقافة البدائية" فعرفها بقوله: "هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعارف والمعتقدات والفنون والحقوق والأخلاق والتقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع معين"⁽¹⁹⁾. ونلاحظ أن هذا التعريف مجرد وصف وتعداد لعناصر الثقافة. غير أن الحجر الأساس في التعريف هو تأكيده على أنها العناصر التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع معين.

ويعرف غي روشي في كتابه مدخل إلى علم الاجتماع العام الصادر 1963، الثقافة انطلاقاً واستناداً إلى تعريف دوركايم: "بأنها طريقة مجتمع ما في الحياة وما تتضمنه من نماذج وطرق في الشعور والتفكير والسلوك التي يكتسبها الفرد بوصفه عضواً في ذلك المجتمع، ويستخدمها بصورة موضوعية ورمزية في أن واحد"⁽²⁰⁾. هذا التعريف الأخير للثقافة، وإن كان يتفق مع تعريف تايلور في أن الثقافة هي ما يكتسبه الفرد بوصفه عضواً في المجتمع، فإنه يتفوق على تعريف تايلور لكونه يتميز بأنه يتضمن تصنيفاً لعناصر الثقافة، وليس مجرد سرد وتعداد لمكوناتها (طرق الشعور والتفكير والسلوك).

ويعرف بن نبي الثقافة: "بأنها ذلك المناخ الذي يشكل طباع الفرد فيتحول من فرد إلى شخص"⁽²¹⁾. فهي: "مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه"⁽²²⁾. وفي رأي مالك بن نبي "فنحن لا نتعلم الثقافة وإنما نتنفسها ونتمثلها بالطريقة نفسها التي يتم بها تنفسنا وتمثلنا لأكسجين الهواء"⁽²³⁾.

فالثقافة داخل حدود تقوم بصياغة الشخصية الإنسانية وتكييفها بما تستجيب للمشكلات التي تواجهها بكفاءة، فالطفل الذي يولد في مجتمع معين ويتشرب ثقافة ذلك المجتمع ستتكيف شخصيته وسلوكه مع قيم تلك الثقافة فيلبس بطريقة محددة ويأكل بطريقة معينة، ويتزوج وفق طقوس معينة، ولو فرضنا أنه نشأ في مجتمع آخر وثقافة أخرى لللبس وأكل وتزوج بطريقة مختلفة، إن هذه هي الوظيفة النفسية للثقافة أنها تقوم بتكييف غرائز الفرد بما يحقق استقرار المجتمع، إن ذلك لا يعني طبعاً أن الإنسان محكوم عليه بجبرية وحتمية اجتماعية، وأنه ليس إلا وعاء يملأه المجتمع بما شاء، كما ذاع وشاع ذلك عن دوركايم، فالإنسان كائن يتصف بالإرادة والحرية والقدرة على التمييز والاختيار والتغيير وليس محكوماً عليه بحتمية اجتماعية لا حول له ولا قوة معها، وإلا كيف نفسر الفروق الفردية بين الأشخاص المنتمين لنفس الجماعة، ونفس المجتمع، ونفس الحضارة، وهم الذين تشربوا ثقافة واحدة، وكيف نفسر التغير الثقافي الذي يحصل للفرد فيتخلّى عن ثقافته الأصلية ويتشرب ثقافة أخرى، وكيف نفسر التغير الثقافي الذي يحصل للمجتمع من مرحلة تاريخية لأخرى.

فالثقافة تصوغ شخصية الإنسان ضمن حدود معينة، تسمح ببروز الاختلافات الفكرية والسلوكية بين أفراد المجتمع الواحد، فإذا شهبنا الثقافة بالقالب فينبغي أن نضيف بأن هذا القالب

الذي يصوغ شخصية الفرد ليس قالبا جامدا بل يملك قدرا من الليونة والمرونة النسبية التي تسمح للاختلافات الفردية بالبروز، فأفراد المجتمع وإن كانوا يشتركون في ثقافة واحدة فإن هذه الثقافة لا تعدم الاختلافات والتفاوت بين الأفراد.

2.2.2. عناصر الثقافة

إن الثقافة بالنسبة لمالك بن نبي هي أسلوب الحياة في مجتمع معين، وهي القيم التي تُعبر عن وضعية المجتمع الحضارية، وهي أيضا طرق التفكير ونماذج السلوك التي تشكل طباع الإنسان، وتصبغ شخصيته بصبغة متميزة، وتزوده بنظرية في المعرفة، ومنهجية في العمل والبناء، وهي كما سبق أن ذكرنا تتضمن عناصر كثيرة تند عن العد والحصر، وهذه العناصر هي التي تصنع التنوع والاختلاف الثقافي بين الحضارات المختلفة، كما تصنع الاختلاف بين المجتمعات المنتمية إلى نفس الحضارة، كما تصنع الاختلاف فيما بين المجموعات الاثنية والدينية والمذهبية واللغوية، المنتمية إلى مجتمع واحد متعدد ثقافيا.

فالثقافة كظاهرة اجتماعية مركبة تتضمن كل العناصر والخصائص التي تحفظ هوية كل حضارة وكل مجتمع وكل جماعة وهذه العناصر على كثرتها يمكننا على الأقل إرجاعها وتصنيفها في أربع مكونات، ذكرها الأستاذ مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة الصادر في طبعته الأولى بالفرنسية عام 1948 وهي:

- التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية.
- الذوق الجمالي لتكوين الذوق العام.
- المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- الصناعة أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع⁽²⁴⁾.

إن تطبيق هذه العناصر على اللباس كظاهرة اجتماعية ومشترك بين الإنسانية جمعاء، يسمح لنا بصورة أوضح فهم كيف تصوغ هذه العناصر الثقافية الأربعة سلوكنا الاجتماعي وأسلوب حياتنا من هذا الجانب، وهنا ينبغي أن نسجل أولا أن الإنسان قد تعلم منذ فجر التاريخ أن يغطي جسده لاعتبارات عملية ومناخية ودينية، ولا نعرف حيوانا أو كائنا يفصل لباسا ويصنع زيا غير

الإنسان ، ليس لأن الحيوان قد زودته الطبيعة بلباس طبيعي صوفا وريشا ووبرا وحرشف..بل أيضا لأن الحيوان لا يملك ثقافة يكتسبها أو يورثها وإنما يملك غريزة فحسب، ويتصرف بما تمليه عليه الغريزة، لذا نلاحظ إن أسلوب حياة أي حيوان اليوم لا يختلف عن أسلوب حياة نفس الحيوان قبل عشرة آلاف سنة، بينما أسلوب حياة الإنسان اليوم بما في ذلك لباسه يختلف كثيرا عن أسلوب حياة ونمط لباس جده، فضلا عن نمط حياة الإنسان قبل آلاف السنين، إن الفارق بين الإنسان والحيوان يكمن في أن الإنسان، صانع ثقافة، فهو يكتسب الثقافة ويضيف إليها وينقلها إلى الجيل من بعده، ومن هنا نجد أن المجتمعات تشترك في اللباس، لكنها تختلف في الأزياء تبعا لاختلاف ثقافتها، حيث تقوم الثقافة السائدة في المجتمع بتحديد السمات ونمط اللباس المقبول أو المرفوض اجتماعيا، من خلال عناصر الثقافة الأربعة:

- **فعنصر التوجيه الأخلاقي** كيف اللباس لبعض القيم الأخلاقية والدينية المتعارف عليها في كل مجتمع، كخلق الحياء الذي يفرض ستر ما يعد سوءاً أو عورة، وكل سوءاً أو عورة ينبغي أن تستر. غير أن هذه القيمة الأخلاقية ليست واحدة في جميع الحضارات وفي كل المجتمعات، فمفهوم العورة مفهوم اجتماعي وثقافي يختلف من مجتمع إلى آخر، ومنه نجد كل ثقافة وما تتضمنه من قيم أخلاقية التي هي أساسا قيم دينية تمارس دورها في تكييف اللباس، لتوائم مقتضيات هذه القيم.

- **وعنصر الذوق الجمالي** كيف اللباس لاعتبارات الأناقة الخاصة بكل شعب، فيحدد طرز وأنماط وألوان وأنواع القماش والأزياء المفضلة، فبعض الشعوب تفضل اللون الأبيض، وبعضها اللون الأسود، أو الأحمر، أو الأزرق، وبعض الشعوب تفضل الألبسة الواسعة الفضفاضة وبعضها الآخر يفضل الألبسة الطويلة الضيقة،

- **وعنصر المنطق العملي** كيف اللباس مع ظروف المناخ والعمل، فيحدد ما يلبس صيفا وما يلبس شتاء وما يلبس في وقت الراحة وما يلبس وقت النوم، وما يلبس وقت العمل وما يلبس وقت العبادة. "فالعبداء مثلا -كما يرى مالك بن نبي - من الأشياء التي ورثتها لنا بيئة تميل بروحها إلى التمتع والهدوء"⁽²⁵⁾، فلقد كان هذا اللباس لباس الإمام والعالم ولباس الفقير الزاهد، كما كان لباس الأمراء المنغمسين في الشهوات. وقد كان هذا اللباس الفضفاض عمليا بالنسبة لهم في بيئة صحراوية شديدة الحر، وبيئة تميل بروحها إلى التمتع والهدوء. لكن هذا اللباس الفضفاض قد لا يكون عمليا في بيئة أخرى.

- أما الفن الصناعي فهو أيضا من عناصر الثقافة التي تدخل في تكوين اللباس من خلال آلات حياكة ونسج وخياطة اللباس، ويكفي أن نستحضر هنا اللباس المعروف في بلاد المغرب العربي باسم القشابة لنسترجع في مخيلتنا مختلف الآلات والفنون التقليدية في غزل الصوف وحياكة هذا اللباس فهذه الأدوات والفنون هي أيضا جزء من الثقافة وعنصر من عناصرها المرتبطة باللباس.

وهكذا تتداخل عناصر الثقافة الأربعة من - منظور مالك بن نبي- في تشكيل اللباس الخاص بكل مجتمع، بحيث يكون هذا اللباس متوافقا مع القيم الثقافية السائدة في ذلك المجتمع أعني القيم الأخلاقية والجمالية والعملية والفنية،

وهنا تجب الإشارة أولا أن ما ينطبق على اللباس ينطبق على سائر أوجه النشاط والسلوك الاجتماعي. فنحن ننضوي على الأشياء معانيها من خلال قيم الثقافة التي ننشربها من المجتمع الذي نشأنا فيه. وهنا ينبغي أن نطرح السؤال كيف يتم تشرب هذه القيم والعناصر الثقافية؟ إن هذا السؤال يضعنا بطبيعة الحال وجها لوجه أمام سؤال الفعل التربوي الذي سنعرض له حالا.

كما تجب الإشارة ثانيا أن هذه القيم والعناصر الثقافية قابلة للتغيير بفعل عوامل داخلية وخارجية كثيرة ومتعددة خاصة في ظل ظاهرة العولمة التي تشهدها البشرية منذ منتصف القرن العشرين، وهنا أيضا ينبغي أن نطرح السؤال كيف يحصل التغيير في القيم الثقافية؟ إن هذا السؤال يضعنا بطبيعة الحال وجها لوجه أمام سؤال التغيير الثقافي الذي سنعرض له باختصار تاليا، لتجاوز حدود هذا البحث.

إن سؤال الفعل التربوي يتعلق بنقل القيم والعناصر الثقافية من جيل إلى جيل وتنشئة الخلف عليها، بينما سؤال التغيير الثقافي يتعلق بتعديل في القيم الثقافية أو استبدالها بقيم أخرى من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل سواء أدى ذلك إلى زيادة في الفعالية الحضارية للمجتمع أم نقصانها.

3. مفهوم التربية وشروطه السيكلوجية والسوسيولوجية.

3.1. في مفهوم التربية

يؤكد بعض علماء الاجتماع التربوي على أن وظيفة التربية بالنسبة إلى الثقافة تتجلى في ثلاثة

وظائف:

- الوظيفة الأولى: هي نقل التراث الثقافي والمحافظة عليه.
- الوظيفة الثانية: وهي تنقية الثقافة من الشوائب التي علفت بها،
- الوظيفة الثالثة: وهي تجديد الثقافة بإضافة خبرات وعناصر جديدة، وكل ذلك في سياق اجتماعي تغييري (26)

لا جدال في أن التربية تمثل بذاتها وسيلة فعالة من وسائل النقل الثقافي، أما تنقية الثقافة وتجديدها فنحسب أنها تحتاج إلى جملة من الشروط السوسيولوجية التي تجعلها ناجعة، لنحدد أولاً مفهوم التربية؟

تعرف التربية انطلاقاً من دلالات الكلمة في أصل وضعها اللغوي الزيادة والنمو؛ بأنها "تبليغ الشيء كماله على التدرج" (27)، و"الرباني هو العالم الراسخ في العلم الذي يربي بصغار العلم قبل كباره" (28). وعرف الفيلسوف وعالم التربية جون ديوي (1845-1905 م) "التربية هي الحياة وهي عملية تكيف بين الفرد وبيئته" (29). ويعرف جون ستيورات ميل التربية بأنها "كل ما نفعله نحن من أجل أنفسنا وكل ما يفعله الآخرون من أجلنا حين تكون الغاية تقريب أنفسنا من كمال طبيعتنا"، أما عالم الاجتماع هربرت سبنسر (1820-1903 م) فقد عرفها بأنها: "إعداد الفرد ليحيا حياة كاملة" (30).

فالتربية هي ذلك الفعل الاجتماعي المقصود الهادف إلى تكوين الإنسان من خلال نقل المعارف والخبرات، وخلق القابليات والملكات، واكتساب السلوكيات والمهارات، حتى يبلغ على التدرج أقصى كمالاته المادية والروحية في إطار المجتمع الذي يعيش فيه.

ليس هناك أدنى شك في أن التربية هي في أساسها عملية اجتماعية ثقافية حضارية شاملة، هدفها تحقيق التكيف أو التفاعل بين الفرد وبيئته التي يعيش فيها، أي عملية تطبيع اجتماعي لاكتساب خبرة اجتماعية واكتساب القيم الأخلاقية التي تجعل من الفرد عضواً فاعلاً في المجتمع. ومن الواضح أن عملية التطبيع هذه تحدث في إطار ثقافي معين يتحدد على أساسها اتجاهها ومفهومها ومعناها بحسب اختلاف هذا الإطار الثقافي من مجتمع لآخر، فالتربية عملية ضرورية لكل من الفرد والمجتمع معا (31).

التربية فعل سوسيولوجي؛ وقد يتم هذا الفعل على مستوى الأسرة، وقد يتم على مستوى مؤسسات اجتماعية أخرى. كالمدرسة التي يرى دوركايم أن وظيفتها الأساسية هي تلقين الأطفال القيم الأخلاقية المشتركة التي تشكل لحمة المجتمع (32)، كما يجب أن نلاحظ أن التربية قد يقصد بها في مدلولها الواسع تلك العملية التي تستمر مع الإنسان مدى الحياة، بينما هي في مدلولها الضيق يقصد بها أفعال التنشئة الخاصة بالمرحلة العمرية الأدنى أي ما يعرف بمرحلة الطفولة، وهي مرحلة كما هو اسمها تتميز بالاعتماد الكامل أو الجزئي على الغير.

ولما كانت التربية يمكن أن تكون وسيلة لاستمرار وإعادة إنتاج الواقع الاجتماعي، كما يمكن أن تكون وسيلة للتجديد الحضاري والتغيير الاجتماعي، كان من الضروري على المفكر أو المصلح الاجتماعي أن يحدد غاية الفعل التربوي وأهدافه ووسيلته.

ومن هنا فقد أورد مالك بن نبي في مجمل انتاجه الفكري عدة مفاهيم للتربية بعضها تتناولها كمنهج وبعضها تتناولها كوسيلة، فتارة يعرفها تعريفا عاما، بأنها المنهج الذي يؤسس ويوجه حركة ونشاط المجتمع بأكمله، وما يضم من مؤسسات وتجمعات، وسائر الكيانات المختلفة، وفي هذا الصدد يقول "التربية هي المنهج الذي يهدي سير مجتمع ما، تأخذ قواعدها العامة من علم التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم النفس" (33).

وتارة يقتصر في تعريفها على مدلولها الخاص فيعرفها بأنها الوسيلة الضرورية لصياغة شخصية الأفراد وعلاقاتهم ببعضهم البعض، وهو ما يعبر عنه بقوله: "التربية وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك" (34). كما يحددها ثالثا بأنها الجهد المبذول لتوجيه الطاقة الحيوية لأفراد المجتمع نحو الغيات التي يحددها هذا المجتمع وهو ما عبر عنه بقوله: "ولكي يمكن

3.2. منطلقات الفعل التربوي عند مالك بن نبي

يوكد مالك بن نبي على ثلاث منطلقات أساسية للفعل التربوي؛ يتمثل المنطلق الأول في كونه فعلا سننيا وقانون اجتماعيا أوليا، والمنطلق الثاني أن الفعل التربوي هو فعل مستمر متواصل عبر جميع مراحل الفرد والمجتمع، والمنطلق الثالث: أن الفعل التربوي هو فعل غائي يرتبط بالحاجات الحضارية للمجتمع في كل مرحلة من مراحل تاريخه ومن ثم فهو فعل متعدد الوسائل والأهداف.

ينطلق مالك بن نبي في تأكيده على أهمية التربية من قانون اجتماعي أكد عليه القرآن الكريم وهو أن كل إصلاح لا ينطلق من تغيير الإنسان سيكون عقيماً، معللاً رأيه بالسنة الكونية المستمدة من القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [سورة الرعد الآية: 11]، ومن ثم فإن المرض الذي أصاب الأمة والمجتمع، يكمن سببه الأساسي في الاختلال الذي أصاب شخصية الإنسان، وهو ما يستوجب بناء استراتيجية تربوية لتوجيه وتصحيح سلوك الإنسان نحو بناء الحضارة،

فالإصلاح والتغيير يجب أن يقوم على إستراتيجية ورؤية تربوية تضع نصب عينها هذه الغاية. يقول مالك بن نبي: "إن معالجة الإنسان على أنه هو مصدر الصعوبات ومصدر المشكلات التي تنشأ في المجتمع ويعود تأثيرها عليه وعلى أسرته وأولاده، وهذا يستدعي ما لحظة قيمته التي تتضمن معادلتين، معادلته بصفته إنساناً، أي أنه كائن طبيعي خلقة الله وكرمه وهذه المعادلة لا يمسه التاريخ بتغيير، ثم معادلته بصفته كائناً اجتماعياً له فاعلية تعلي من قيمته الاجتماعية وهي التي يطرأ عليها التغيير ترتبط هذه الفاعلية بالمجتمع وظروفه وما يجب أن يوفره لها ضمن شروط حضارية" (35).

ومن هنا فإن عملية التربية عملية متواصلة وأنها ليست ظرفية تتعلق فقط بمرحلة تاريخية معينة، وإنما هي ديناميكية تتطور بتطور المجتمع، آخذة في الاعتبار كل ما ينتج عن ذلك من تغير وتحول على جميع الأصعدة، وهي بهذا تتجاوز في فكر بن نبي حدود المؤسسة التعليمية لتمس مختلف مجالات الحياة في المجتمع ومؤسساته، لتلتقي بذلك مع النظرة الحديثة إلى التربية والتي لم تقتصر على المدرسة وحدها ونظامها الهرمي وال على السنين التي يقتضيها التعلم بها، بل امتدت لتشمل مجالات الحياة كلها وكامل مراحل الإنسان وجميع فئات المجتمع (36).

في جميع الأحوال حيث يلاحظ مالك أن أي استراتيجية تربوية يجب أن تنطلق من تحديد صلة الفرد بالحضارة، ذلك أن "صلة الفرد بالحضارة أو مكانه منها هي في ثلاث مراحل: فالإنسان إما أن يكون قبل الحضارة، وإما أن يكون في نعيم الحضارة، وإما أن يكون قد خرج من الحضارة. والمراحل الثلاث هذه تختلف تمام الاختلاف. فمن المفهوم أن الإنسان المتحضر يختلف إذا اقتصرنا على هذا التحديد عن الإنسان غير المتحضر. ولكن ينبغي أيضاً أن نقيم نسبة أخرى بين الذي خرج من الحضارة والذي لم يدخلها بعد، فالإنسان الخارج من الحضارة يحتوي على بعض الرواسب، ويكون أكثر مصداقاً للمصاعب في المجتمع من ذلك الذي لم يدخل بعد إلى هذه الحضارة" (37).

ومنه فإن أي استراتيجية تربوية في مفهوم مالك بن نبي يجب أن تركز على ركيزتين أساسيتين هما :

- معرفة معوقات الحضارة والفعالية الحضارية في ثقافة المجتمع، ومن ثم تصفيتها وإزالتها في نفسية الفرد، وذلك لقطع كل رواسب وموروثات الماضي السلبية وهو ما يعرف في الخطاب الصوفي بالتخلية. حيث لا يمل مالك بن نبي من التأكيد على أن تربية إنسان الحضارة وإنشاء حضارة، لا يتوقف فقط على توظيف الطاقات الاجتماعية الموجودة، مهما كانت الظروف وإنما يتطلب أيضا التخلص من رواسب ومعوقات ما قبل الحضارة.

- معرفة عوامل الفعالية الحضارية والتغيير الحضاري ومن ثم العمل على ترسيخها، وبالتالي تطعيم الثقافة بأفكار بناء جديدة تصلها بالمستقبل وبالحياة الكريمة وهو ما يعرف في التراث الصوفي بالتحلية.

ومن هنا فإن الفعل التربوي يجب أن يوجه في وسائله ومحتواه وطرائقه طبقا للغايات والأهداف التي يفرضها مكان المجتمع من الدورة الحضارية.

4. علاقة التربية بالثقافة من منظور مالك بن نبي.

شكلت العلاقة بين التربية والثقافة إحدى أهم الإشكالات التي اشتغلت عليها عدة تخصصات علمية كعلم اجتماع التربية، وعلم الاجتماع الثقافي، والأنثروبولوجيا، وعلوم النفس والتربية، حيث تحاول كل منها بأدواتها المنهجية تفكيك طبيعة العلاقة المتبادلة بين الثقافة والتربية.

فمن جهة نسجل أن الثقافة تؤطر الفعل التربوي في فلسفته وغاياته وأهدافه ومحتواه القيمي والمعرفي بل حتى في وسائله البيداغوجية والمادية، فلقد ظلت مثلا عصا الخيزران أو الزيتون لفترة طويلة بحكم -الثقافة السائدة- جزءا ضروريا لنجاعة الفعل التربوي، فالفعل التربوي من هذه الناحية محكوم بالثقافة السائدة، ولا يمكننا هنا بطبيعة الحال أن نتجاهل أن الثقافة تختلف من مجتمع إلى مجتمع. ومن عصر إلى عصر، بل نجد هذا الاختلاف بين أفراد المجتمع الواحد إذا استحضرننا الزوج المفهومي ثقافة النخبة-الثقافة الشعبية أو الثقافة العامة والثقافة العاملة. ولكن مهما يكن الأمر فإن البحوث التربوية والاجتماعية والأنثروبولوجية تؤكد على أن نمط الشخصية له علاقة وثيقة بنمط الثقافة السائد الذي تشكلت ونشأت في مناخه هذه الشخصية، وإن هذه الأخيرة هي مرآة تعكس بصدق صورة الثقافة. فما هي إلا نموذج مصغر للثقافة التي نشأت فيها. وفي هذه

الحدود، يمكننا القول إن الثقافة تؤثر في بناء الشخصية من حيث الأفكار والقيم والمعارف والمهارات والخبرات والدوافع وطرق التعبير على الانفعالات والرغبات وأنماط السلوك المختلفة. كما تؤثر أيضا في النواحي الجسمية والعقلية والمزاجية والخلقية.

ومن جهة ثانية يمكن أن نسجل أن الفعل التربوي ضمن شروط معينة، يمكن أن يكون وسيلة ومدخلا فعالا للتغير الثقافي وبالتالي التغيير الاجتماعي والحضاري، لقد كان مالك بن نبي معنيا أكثر بهذا الجانب من علاقة التربية بالثقافة، وهو كيف يمكن للفعل التربوي في المجتمعات الإسلامية على وجه الخصوص أن يتوقف عن الانخراط في انتاج النمط الثقافي السائد وما يكسبه لأفراده من عطالة ولا فعالية في الفهم والأداء؟ ليصبح أداة للتغيير الثقافي واكتساب الفعالية الحضارية.

من دون شك يحتاج بيان كيف ينتقل الفعل التربوي من موقع المتغير التابع إلى موقع المتغير المستقل، إلى المزيد من التحليل والدراسات التي لا تتسع لها هذه الورقة البحثية، خاصة إذا علمنا للأسف أن الدراسات التي اشتغلت على بيان كيفية تحول الفعل التربوي من موقع التأثير إلى موقع التأثير في الثقافة لا تزال قليلة.

لقد ركز مالك بن نبي في تناوله لهذه العلاقة على تحليل العناصر الضرورية التي تدخل في تكوين مفهوم الثقافة، ويمكن تطبيقها تربويا، ولم يكن التحليل التاريخي والبنوي الذي قام بتوصيفه في مدخل كتابه (38) ب"التحليل النفسي للثقافة" الا تمهيدا لتأكيد فكرتين أساسيتين:

الأولى: ذات طبيعة تاريخية، وهي أن كل مجتمع بحاجة إلى تكوين مفهوم مستقل وخاص به لطبيعة مشكلته الثقافية وذلك حسب مرحلته التاريخية، ومكانه من الدورة الحضارية، وأن هذه الملاحظة - حسب بن نبي- لم تكن لتنبني على اعتبارات دينية أو سياسية، بل هي قائمة على اعتبارات علمية وفنية خالصة، وهذه الملاحظة كما هو واضح ذات ارتباط وثيق بالمشكلة التربوية عموما وبمشكلة العالم الإسلامي على وجه الخصوص، إن كل مجتمع له ثقافته و لكن هذه الثقافة أشبه بالدم فكما أن نقل الدم يخضع لبعض القوانين المتعلقة بالزمر، فكذلك عمليات النقل الثقافي لا بد فيها من مراعاة القوانين والسنن المرتبطة بهذا الجانب، وفي هذا الاطار يمكن أن نسجل تاريخيا تلك المحاولات التي تم فيها استغلال الفعل التربوي والمؤسسات التربوية لتغيير ثقافة مجتمعات كاملة دون مراعاة هذه القوانين والسنن، فيما يمكن توصيفه بامتياز بالعنف المؤسس، غير أن هناك وجها آخر للمشكلة الثقافية والتربوية في جانبها التاريخي لطالما نبه عليه مالك بن نبي وهو أن الثقافة كنسغ

أو كدم يغذي المجتمع بالأفكار والنماذج يحمل الأفكار الميتة والنماذج المحنطة التي ورثها عبر سيرورته التاريخية، وإن معالجة المشكلة الثقافية تفرض على الفعل التربوي أن يتحول إلى جهاز تنصيف الدم من هذه الأفكار الميتة والنماذج المتجاوزة بما يسمح لأفراد ذلك المجتمع من الانتقال من حالة العطالة إلى حالة الفعالية الحضارية.

الثانية: ذات طبيعة بنيوية، وهي أن العناصر التي تدخل في تكوين مفهوم الثقافة، ليست لها نفس القيمة والأهمية بالنسبة للثقافات المختلفة؛ فبعض الثقافات تملك وفرة في القيم الخلقية وتعاني فقرا في القيم العملية والعكس، وقد تملك وفرة في الأفكار وتعاني فقرا في النماذج، كما أن العلاقة بين هذه العناصر ليست واحدة في كل الثقافات؛ فبعض الثقافات تقدم القيم الجمالية على القيم الأخلاقية وهو ما يظهر بشكل واضح في أدبها ومسرحها وفنونها ونحت التماثيل العارية بينما على العكس من ذلك نجد ثقافات أخرى تعلي من شأن القيم الخلقية وتجعل لها الاعتبار الأول في ذلك. إن طبيعة المشكلة التربوية في منظور مالك بن نبي وثيق الصلة بطبيعة المشكلة الثقافية من هذا الجانب، خاصة بالنسبة لكل محاولة لمعالجة المشكلة الحضارية للمجتمعات الإسلامية، وهي مجتمعات كما يؤكد مالك بن نبي قد فقدت كل صلة لها بنماذجها الثقافية الأولى، فهي تعاني اليوم تخمة في القيم والأفكار المجردة، ولكن ليس لها في برنامجها التربوي ما يكفي من النماذج الحية المعاصرة غير المتجاوزة لتجسيد هذه الأفكار والقيم.

من الحديث عن التحليل النفس ي للثقافة، ينتقل مالك بن نبي إلى الحديث عن التركيب النفس ي للثقافة معالجة مشكلة الثقافة من زاوية أخرى، وعلى قاعدة التمايز الثقافي، والتباين في مستويات التطور الحضاري، ويرى بن نبي أن مشكلة الثقافة – بين العالم العربي والإسلامي والعاملين الغربي والاشتراكي - ال تكمن في محاولة فهم الثقافة، وإنما منحصرة في تحقيقها وتمثلها بصورة عملية وتطبيقية وهذا ما يقصده مالك بن نبي بالتركيب النفس ي للثقافة.

ويجب أن نلاحظ هنا أن مالك بن نبي – وهو يتمثل شخصية عالم الاجتماع – فضل استخدام مصطلحات علم النفس مع أن منهجه في البحث أقرب إلى علم الاجتماع. ويحاول الدكتور زكي الميلاد إزالة الغموض الذي يكتنف هذين المفهومين: التحليل النفسي للثقافة والتركيب النفسي للثقافة؛ فبحسبه فإن عبارة التحليل النفسي للثقافة يراد منها الإجابة عن سؤال كيف نفهم الثقافة؟ أما عبارة التركيب النفسي للثقافة يراد منها الإجابة عن سؤال: كيف نطبق الثقافة؟ أو

كيف يكون للثقافة واقع فعلي في حياتنا؟ أي كيف تتحول الثقافة إلى برنامج تربوي يصوغ شخصية الفرد كما يصوغ سائر أشكال ومناحي النشاط الاجتماعي.

5. الثقافة كبرنامج تربوي

ليست الثقافة بالنسبة لمالك بن نبي مجموعة معارف بل هي منهج يؤطر سلوك ونشاط المجتمع ومن ثم يمكن النظر إليها كبرنامج تربوي لا يقتصر على المدرسة وانما يسع المجتمع كله، ولا يقتصر على مرحلة عمرية معينة بل يشمل كل مراحل العمرية من المهد الى اللحد

"وإذا حاولنا أن نحدد الثقافة بمعناها التربوي، فيجب أن نوضح هدفها وما تتطلبه من وسائل التطبيق لها، فالهدف يعني أن الثقافة ليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي، ووظيفة الثقافة أشبه بوظيفة الدم الذي يتركب من الكريات الحمراء والبيضاء، فكالهما يسبح في سائل واحد ليغذي الجسم، وكذلك الثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته، ويحمل أفكار النخبة كما يحمل أفكار العامة، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة، والأذواق المتناسبة، وفي هذا المركب الاجتماعي للثقافة ينحصر برنامجها التربوي وهو يتألف من أربعة عناصر" (39)

وهي العناصر التي سبق تحديدها سابقا: القيم الأخلاقية لتكوين الصلات الاجتماعية، والقيم الجمالية لتكوين الذوق العام - قيم المنطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام - الفن التطبيقي أو الصناعة الموائم لكل نوع من أنواع النشاط.

على أن التربية كما سبق وأن أوضحنا لا تقتصر في مفهوم مالك بن نبي على التحلية بالجوانب الإيجابية وانما تتعلق أيضا بالتخلية والتخلص من الجوانب السلبية التي تؤثر في فعالية الأداء الحضاري للمجتمع؛ وفي هذا الصدد يذكر مالك بن نبي جملة من العوائق التي يجب أن يعمل الفعل التربوي على تنحيتها من السلوك الفردي والجماعي منها على سبيل المثال لا الحصر:

5.1. العقلية الطفولية وثقافة الصراخ

تتميز شخصية الفرد في المجتمعات العربية والإسلامية بالميل إلى ثقافة الصراخ والمطالبة بالحقوق ونسيان الواجبات، هو سلوك يتشربه الفرد منذ الفطام، يقول مالك بن نبي: "سألني أحد

أقاربى ولدت لي حفيدة فكيف تشير علي بتربيتها؟ فسألته منذ كم ولدت؟ قال منذ شهر؟ قلت إذن لقد فات شهر من التربية والثقيف.

لقد تذوقها كنكتة كما أراكم تذوقتموها. لكنها في الحقيقة ليست نكتة؛ فالطفل يبتدئ تكوينه النفسي في زمن مبكر أكثر مما نتصور عادة، إذ ملامح تكوينه النفسية تتكون قبل ما تتصوره الأسر التي تحن منها... فالأم وهي أقرب الناس للطفل، التي يجرها إسراف في حنانها إلى إفراط في العطف يزيد عن درجة معقولة: يصرخ الطفل وهذه فطرته للمرة الأولى وأظن أن هذا يقع في اليوم الثاني إذ في اليوم الأول لا يتغذى الطفل على ما اعتقد، فالطفل حينما يشعر بالجوع يصرخ فتأتي الأم وتغذيه من دون قيد أو شرط، أي كلما صرخ أتت أمه لتغذيه، ينتج عن هذا خلال أسبوع واحد فقط أن الطفل يسجل في أعماقه واقعا، وهو أن هذا العالم حين يصرخ يستجيب له.

أما حينما يكون الإرضاع منتظما (مرة كل ثلاث أو أربع ساعات) ولا يقدم له ثدي أمه إلا في الحدود والمواقيت المقررة وفقا لتعليمات الطبيب، فإن الطفل إذا صرخ في المرة الأولى والثانية والثالثة دون جدوى، يعرف حينئذ أن العالم لا يستجيب للصراخ وأن المشاكل لا تحل بالصراخ، فينشأ عنده منذ الأسبوع الأول سلوك يختلف عن السلوك الأول جوهريا، إذ الطفل الأول يحل مشكلاته بالصراخ، والثاني يعرف أن الصراخ لا يحل مشكلاته.

5.2. النزعة الفردية الانعزالية

لقد كان للانفصال الأول في تاريخ العالم الإسلامي أثره الكبير في حدوث تفكك المجتمع، وتصعد بنتية الداخلية، وتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية؛ حيث ظهرت أولى بذور الفردانية بدل الجماعية، والأنانية بدل الإيثار، والسلبية في التفاعل مع الوحي والواقع بدل التفاعل الإيجابي معهما. وبديل أن يتم إعادة نظم عقد الجماعة واسترداد الإنسان لذاته المستلبة من قبل قيم الآخرين وثقافتهم، ازداد التخبط والضياح عندما حصلت العودة إلى الشخصانية الفاعلة.

تلك الفردانية التي طبعت الفرد والمجتمع، يعتبرها مالك بن نبي من الأمراض التي فتكت بالمجتمع، ولهذا يشير إلى دور الجماعة في التاريخ، إذ عليها يبني كل انجاز حضاري فعال في التاريخ فطاقات الفرد لا قيمة لها إن لم تنظم وتوجه من خلال الجماعة، "فالعامل المشترك يستدعي إيقاعاً ووزاناً يُؤتّران الجهود الفردية، ويُفرغنها في الوقت نفسه داخل الجهد الجماعي.." (40)،

5.3. النفسية السوداوية

وهي النفسية التي عمل المستشرقون وتلامذة الفكر الاستشراقي عموماً على تعزيزها وترسيخها من خلال التأكيد على أن طبيعة العرب غير قابلة للتحضر، وأن تاريخ العرب والمسلمين يبين أنه لا يصلحون للحضارة، وأن العقل العربي والإسلامي بطبيعته جزئي كما ادعى ذلك المستشرق هاملتون جب، بحيث لا يمكنه أن ينتج معرفة منهجية علمية، وهي أفكار ليس لها من هدف إلا تعزيز الشعور بالدونية وتعميق النفسية السوداوية ونشر الطاقة السلبية في المجتمع، بأنه لا جدوى من أي عمل أو أي محاولة للتغيير والإصلاح. حيث نجد النفسية اما تغرق في ذهان الاستحالة أو ذهان السهولة، "إن أول الابواب إلى الحضارة أن نواجه المشكلات مستبشرين لا متشائمين، فإذا ما واجهنا الامور متشائمين فقد أصبحت في حكم استحالة، ومن العبث أن نفكر بأننا نستطيع التغلب على المستحيل. وهذا ذهان مَرَبْنَا نحن، فقد أصبحنا نقول مسبقاً إذا ما سئلنا لماذا لا تفعلون هذا الأمر؟ إنه مستحيل (41)".

5.4. النزعة الشيئية التكدسية الاستهلاكية

من الأمراض التي ينبغي لكل برنامج تربوي جاد أن يعمل على الشفاء منها، ما دعاه مالك بالنزعة الشيئية وهي نزعة فيها قدر كبير من التعويض النفسي عن العجز عن الابداع، حيث يقارن مالك بن نبي بين تعامل الفرد الياباني وتعاملنا مع أشياء الحضارة الغربية "إن اليابان قد بنى مجتمعاً متحضراً، فهو قد دخل الأشياء من أبوابها. وطلب الأشياء بوصفها حاجة، درس الحضارة الغربية بالنسبة لحاجاته، وليس بالنسبة لشهواته. فلم يصبح من زبائن الحضارة الغربية يدفع لها أمواله وأخلاقه. أما نحن فقد أخذنا منها كل رذيلة، وأحياناً نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة التي قدرها الله لنا" (42).

"ويقرر أن فعالية العوامل الإنسانية البسيطة ليست مضمونة في سائر الظروف. فهي مشروطة بظروف تاريخية نفسية معينة، يمكن أن نحددها سلبياً فنقول: إن هذه الشروط لا تتحقق في مجتمع لا زال في عمر الطفولة، أي لا زال مرتبطاً بمنطق الأشياء يعيش في المرحلة التي نطلق عليها ما قبل الحضارة.

وهكذا يمكننا أن نحدد التخلف بعد أن حددناه بأرقام متوسط الدخل السنوي، على أنه الحالة الاجتماعية التي يكون عليها إنسان ما قبل الحضارة، الإنسان الذي يضع مشكلاته في حدود

الأشياء" (43). " إن علينا أن ندرك بأن تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة، والاستحالة هنا إقتصادية واجتماعية... فالحضارة هي التي تكون منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكون حضارة" (44)..

5.5. النزعة الارتجالية اللاسننية

وهي النزعة التي تمثل مفارقة ومناقضة صريحة لهدف القرآن الكريم الذي عمل على تشكيل العقل المسلم على النظر السنني في جميع مجالات الظواهر الكونية والإنسانية والتاريخية، "وقد نتج عن هذا أنهم منذ خمسين عاما لا يعالجون المرض، وإنما يعالجون الأعراض، وقد كانت النتيجة قريبة من تلك التي يحصل عليها طبيب يواجه حالة مريض بالسل الجرثومي، فلا يهتم بمكافحة الجراثيم، وإنما يهتم بهيجان الحى عند المريض. والمريض نفسه يريد منذ خمسين عاما أن يبرأ من آلام كثيرة: من الاستعمار، من الأمية، من الكساح العقلي، من ... وهو لا يعرف حقيقة مرضه، ولم يحاول أن يعرفه، بل كل ما في الأمر أنه شعر بالأم، فاشتد في الجري نحو الصيدلي، أي صيدلي يأخذ من آلاف الزجاجات، ليواجه آلاف الآلام.

وليس هناك في الواقع سوى طريقتين لوضع نهاية لهذه الحالة المرضية فإما القضاء على المرض، وإما إعدام المريض.

ولنا أن نتساءل حينئذ إذا ما كان المريض الذي دخل الصيدلية دون أن يدرك مرضه على وجه التحديد، سيذهب بمحض الصدفة لكي يقضي على المرض، أو يقضي على نفسه؟

هذا شأن العالم الإسلامي: إنه دخل إلى صيدلية الحضارة الغربية طالبا الشفاء، ولكن من أي مرض؟ وبأي دواء؟ وبدهي أننا لا نعرف شيئا عن مدة علاج كهذا، ولكن الحالة التي تطرد هكذا تحت أنظارنا منذ نصف قرن، لها دلالة اجتماعية يجب أن تكون موضع تأمل وتحليل. وفي الوقت الذي نقوم فيه بهذا التحليل يمكننا أن نفهم المعنى الواقعي لتلك الحقبة التاريخية التي نحيها، ويمكننا أيضا أن نفهم التعديل الذي ينبغي أن يضاف إليها" (45).

المصادر والمراجع

1. مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009.

2. مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، سورية، 2009.

3. مالك بن نبى، مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى، دار الفكر، سورية، 2009.
4. مالك بن نبى، وجهة العالم الإسلامى. دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009.
5. مالك بن نبى، فكرة الأفريقية الآسيوية فى ضوء مؤتمر باندونج، دار الفكر، سورية، 1405هـ، 1985م.
6. مالك بن نبى، مشكلة الثقافة، دار الفكر، سورية، ط4، 1404هـ، 1984م.
7. مالك بن نبى، ميلاد مجتمع، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009.
8. مالك بن نبى، القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009.
9. غى روشيه، مدخل إلى علم الاجتماع العام، تعريب مصطفى دندشلى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 1983.
10. مرتضى الزبيدي، تاج العروس، دار صادر، بيروت، (د.ت)،
11. الفيروزآبادى، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، لبنان، (د.ت)،
12. ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار الجيل، بيروت، ط: 1408هـ، 1988م،
13. أحمد على الحاج محمد: علم الاجتماع التربوى المعاصر، دار المسيرة، عمان، ط3، 2017.
14. سناء نمر شهاب: التربية الأخلاقية والتعليم وأثارهما على إنماء المجتمع، دار المعترف للنشر والتوزيع، ط1، 2017.
15. نبيل عبد الهادى، مقدمة فى علم الاجتماع التربوى، دار اليازورى للنشر والتوزيع، ط1.
16. أ.د عبد الكريم غريب: سوسيولوجيا المدرسة، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، ط1، 2009.

- 1 - مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009، ص: 164.
- 2 - مالك بن نبي، تأملات، ص: 118.
- 3 - مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، سورية، 2009، ص:
- 4 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، سورية، 2009، ص: 42.
- 5 - مالك بن نبي، تأملات، ص: 48.
- 6 - مالك بن نبي، تأملات، ص: 43.
- 7 - مالك بن نبي، تأملات، ص: 44.
- 8 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي. دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر سورية، 2009، ص: 31.
- 9 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 31.
- 10 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص: 31.
- 11 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي. 2009، ص: 29.
- 12 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر، ط 3، 2002 ص: 105.
- 13 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي. 2009، ص: 29.
- 14 - مالك بن نبي، تأملات، ص: 32.
- 15 - مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر با ندونج، دار الفكر، سورية. 1405هـ، 1985م، ص: 135.
- 16 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، سورية، ط 4، 1404هـ، 1984م.
- 17 - انظر: مرتضى الزبيدي، تاج العروس، دار صادر، بيروت، (د.ت)، مادة: ثقف، 52/6. وانظر: الفيروزبادي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، لبنان، (د.ت)، مادة: ثقف، 121/3. وانظر: ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار الجيل، بيروت، ط: 1408هـ، 1988 م، مادة: ثقف، 1/ 364-365..
- 18 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 19.
- 19 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص: 19.

- 20 - غي روشيه، مدخل إلى علم الاجتماع العام، تعريب مصطفى دندشلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 1983، ج1/137 بتصرف.
- 21 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص55.
- 22 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص:74..
- 23 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص:74...
- 24 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص:79-89..
- 25 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص:79-89.
- 26 - ينظر: أحمد علي الحاج محمد: علم الاجتماع التربوي المعاصر، دار المسيرة، عمان، ط3، 2017، ص:283.
- 27 - ينظر: ابن منظور لسان العرب، دار صادر، سنة النشر: 2003م، ج6، ص:92.
- 28 - ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص:70.
- 29 - سناء نمر شهاب: التربية الأخلاقية والتعليم وأثارهما على إنماء المجتمع، دار المعترف للنشر والتوزيع، ط1، 2017، ص:24.
- 30 - نبيل عبد الهادي، مقدمة في علم الاجتماع التربوي، دار اليازوري للنشر والتوزيع، ط1، ص:51.
- 31 - سناء نمر شهاب: التربية الأخلاقية، ص:24.
- 32 - أ. عبد الكريم غريب: سوسيولوجيا المدرسة، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، ط1، 2009، ص:54.
- 33 - أ. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر، سورية، 2009، ص75.
- 34 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص:100.
- 35 - مالك بن نبي، تأملات، ص:28.
- 36 - رقية بوسنان، التربية في فكر مالك بن نبي، ص:04.
- 37 - مالك بن نبي، تأملات، ص:28.
- 38 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، سورية، ط4، 1404هـ، 1984م، ص:92..
- 39 - مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، سورية، 2009، ص92، 93. و مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع 10 سابق، ص77، 78.
- 40 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص:106.
- 41 - مالك بن نبي، تأملات، ص:30.
- 42 - مالك بن نبي، تأملات، ص:166.
- 43 - مالك بن نبي، تأملات، تأملات، 168.

44 - مالك بن نبي، تأملات، تأملات 169.

45 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص: 41.